

اسم المقرر قضايا ثقافية معاصرة

د. بدران مسعود بن الحسن



جامعة الملك فيصل

عمادة التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد

المحاضرة الثالثة عشر

تأخر المسلمين وسبيل النهوض بهم



المحاضرة التمهيدية

- تمهيد
- مفهوم التخلف
- متخلفون عن ماذا؟
- مظاهر التخلف
- أسباب التخلف
- جهود الخروج من التخلف
- ما هو سبيل النهوض بالمسلمين؟



تمهيد:

- ظلت الأمة الإسلامية متماسكة البناء الحضاري، متألفة في سماء الإبداع والعطاء، ممثلة نموذجًا فذاً للنظام الذي يحقق للإنسان إنسانيته ويحفظ له كرامته ويضمن له فعالية مطردة في مجالات التقدم،
- ولم يتحقق هذا إلا بفضل ذلك المنهج الحضاري الشامل، الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يحتاجه الإنسان في مسيرته الحضارية إلا هياها ووفره.
- وما هو قابل للاجتهد بواسطة العقل، وضع له الضوابط الدقيقة التي تعصم العقل من الزيغ في حركته الاجتهادية، وبذلك وصلت الأمة الإسلامية قمة الازدهار وقمة العطاء...
- ولكن أتى عليها حين من الدهر، وجدت نفسها وقد ولى عنها ذلك المجد الزاهي، فرجعت القهقري، وبتعبير آخر تخلفت وتأخرت، وحلت بها الأزمة.
- فما هي الأسباب التي كانت وراء التخلف؟ وكيف السبيل إلى البعث الحضاري من جديد؟



١. مفهوم التخلف:

لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور (مادة تخلف) ما يلي: (خلف الليث: الخلف ضد قدام (...)) وجلست خلف فلان أي بعده (...). **والتخلف: التأخر.** وفي حديث سعد: فخلّفنا فكنا آخر الأربع أي أخّرنا ولم يُقدّمنا، والحديث الآخر: حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما **يخلفهم أي يتقدم عليهم ويتركهم وراءه،** ومنه الحديث: (استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم) (أخرجه مسلم)، **أي إذا تقدم بعضهم على بعض في الصفوف** تأثرت قلوبهم، ونشأ بينهم الخلف، وفي الحديث: (لتسوّن صُفوفكم أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم) (متفق عليه)، **يريد أن كلاً منهم يصرف وجهه عن الآخر ويوقع بينهم التباعد،** فإن إقبال الوجه على الوجه من أثر المودة والإلفة.



٢. متخلفون عن ماذا؟

اصطلاحاً:

- إن مفهوم **التخلف** يتضمن أو يفترض وجود نموذج يجسد التقدم وآخر **متخلف عنه**، فمشيت خلف فلان يعني أنني تخلفت عنه، وتخلفت عن الركب يعني أن تخلفي يقاس بالموقع الذي يحتله ذلك الركب في المسار الذي يفترض السير فيه.
- ومن هذا المنطلق نجد كثيراً من الكتاب والباحثين الذين أثاروا قضية تخلف المجتمع المسلم، يرون أن هذا المجتمع **متخلف بالنسبة للمجتمع الغربي** وقد خضعوا في نظرتهم تلك، للمقياس الذي أشاعه الغرب للتقدم والتخلف،
- وهو اعتبار نموده ممثلاً للتقدم، واعتبار نماذج بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية نماذج التخلف، ولم يقصر ذلك على الجوانب التقنية والعلمية والصناعية ومستويات المعيشة، وإنما مدها إلى القيم والأخلاق ومكونات الشخصية، فاعتبر نموده معيار التقدم وأخذ يقيس عليه النماذج الأخرى، التي ستعتبر متخلفة بالضرورة ما دامت وحدة القياس هي النموذج



- والواقع أننا عندما نحكم على أمة بالتخلف، لابد لنا من مقياس نستند إليه في ذلك الحكم، ولكن الذي ينبغي أن ينعقد عليه يقيننا، أن ذلك المقياس ليس هو إطلاقاً نموذج الغرب وحضارته المادية،
- وإنما هو النموذج الإسلامي المتكامل الذي تجسد على أرض الواقع ردحاً من الزمان وأشع بأنواره على البشرية كلها، ولا يزال إلى الآن وإلى الأبد مثلاً ترنو إليه الأبصار والعقول، التي تدرك المعنى الحق للحضارة والتقدم.
- والسبب في ذلك واضح، وهو أن النموذج الغربي قد قام على أساس مادي صرف وعلى رؤية مبتورة لمفهوم التقدم مشتقة من رؤيته للكون والحياة والإنسان... وهي رؤية لا تحتل منها القيم الأخلاقية والفضائل التي تسمو بحياة الإنسان وتميزه عن الحيوان حيزاً يذكر.



- ومن هنا، وجب تحرير عقول المسلمين من ذلك الاقتران الخطير الذي درجت على استساغته، وهو الاقتران بين التقدم ومجتمع الغرب، غافلين كل الغفلة، عن أن ذلك الطراز من التقدم إذا وضع في ميزان الإسلام، سيكون مصيره الرفض، لأنه يهتم بإشباع حاجات الإنسان المادية، ويخفق فيه حاجاته الروحية، وهو في النتيجة والمآل سينعكف على منتوجاته المادية ويدمرها تدميرًا، في غياب الحصن الأخلاقي الذي يحمي مكاسب الإنسان الحضارية ويصونها من الفساد.

- إننا عندما نحلل مكونات الحضارة الغربية في ضوء ما سبق، ننتهي إلى وضعها في قفص الاتهام، بل إننا لا نتردد لحظة في وصمها بوصمة التخلف، لأنها بعيدة بأوضاعها وأجوائها عن الوضع الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان. فبينما وتائر الإنتاج المادي في تصاعد، إذ بالإنسان يمعن في الارتكاس حتى وصل إلى هذه الصورة البائسة التي نراه عليها اليوم من تمزق وانحلال وعبثية عمياء.



- ومن هنا فإننا عندما نتحدث عن التخلف الحضاري للأمة العربية الإسلامية فلا يخطرن ببال أصحاب العقول الراجحة أننا نقيس الأمة الإسلامية على الحضارة الغربية،
- بل إننا نصف الأمة الإسلامية بالتخلف ونحن على يقين أن من أهم أسباب تخلفها الجري وراء نموذج الغرب، ومحاولة الاقتداء به والسير في ركابه ورؤية الحياة كما يراها هو، والاصطباغ بصبغته المادية التي حولت الإنسان إلى بهيمة سائمة، بل أضل سبيلاً.
- إن في (مجتمعنا الإسلامي) أزمة، لا بل أزمات (....) يعبر عنها في الممارسات السياسية والاجتماعية، والاقتصادية والتربوية والخلقية، وتأخذ طابع الازدواجية في السلوك، والانحراف شبه الكلي عن أصالة المبادئ والقيم التي تنتمي إليها الأمة.
- والأزمة تلح علينا بصور عدة من زمن، ونراها تقعد وتهبط تبعاً لمؤثرات كثيرة وأحداث متلاحقة، إلا أن حدثها قد اشتدت وأصبحت تنذر بشر مستطير (....) منه تدهور الأمة وانحلالها وانعدام أثرها وفعاليتها، واختزال دورها إلى مستوى هامشي لا يعتد به



ما هي مظاهر التخلف؟

- للتخلف في العالم الإسلامي مظاهر عديدة تشمل مختلف أبعاد الحياة؛ مثل:
 - ا - التخلف الاقتصادي
 - ب - التخلف الاجتماعي
 - ج - التخلف الثقافي والفكري
 - د - التخلف السياسي
 - هـ - التخلف العلمي والتقني.



جهود الخروج من التخلف؟

- لو فحصنا سجلات المائة سنة الماضية من أعمال المصلحين والمفكرين وجهود الأمة لوجدنا فيها كثير من الوثائق والدراسات ومقالات الصحف والمؤتمرات التي تتصل بموضوع النهضة؛
- هذه الدراسات تعالج الاستعمار والجهل هنا، والفقر والبؤس هناك، وانعدام التنظيم واختلال الاقتصاد أو السياسة في مناسبة أخرى، ولكن ليس فيها تحليل منهجي للمرض، أعني دراسة مرضية للمجتمع المسلم، دراسة لا تدع مجالاً للظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون .
- ففي الوثائق نجد أن كل مصلح قد وصف الوضع الراهن تبعاً لرأيه أو مزاجه أو مهنته .
- فهناك من رأى أن **الأزمة سياسية** تحتاج حلاً سياسياً، فركز كل جهوده في التغيير والإصلاح السياسي، وانتقاد فساد الحكم، ومحاولة تغيير أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية .



- وهناك من رأى أنها **أزمة أخلاقية** تستلزم حلاً أخلاقياً، فذهب إلى أن الحل يكمن في الالتزام بالخلق الإسلامي الرفيع، والإقلاع عن المعاصي بمعناها الفقهي فقط، وبالتالي راح يتذمر من الفساد الأخلاقي، واعتبره مكنم الداء .
- وهناك من رأى أنها **أزمة عقدية** تستلزم إصلاح العقيدة، وأن لا حل إلا بتخليص العقيدة من الكلام والفلسفة، وإعادة تعليم الناس عقائد الإسلام، وإقناعهم بأن الله هو الخالق وهو المعبود الحقيقي، وأن الالتزام بعقيدة التوحيد هو الحل، فتوجه إلى صياغة علم العقيدة من جديد بأسلوب آخر
- على حين أن كل هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض بل يتحدث عن أعراضه
- وقد نتج عن هذا أنهم منذ مائة عام لا يعالجون المرض ، وإنما يعالجون الأعراض، وكانت النتيجة قريبة من تلك التي يحصل عليها طبيب يواجه حالة مريض بالسل ، فلا يهتم بمكافحة الجراثيم ، وإنما يهتم بهيجان الحمى عند المريض .



أسباب التخلف (التأخر)

أسباب داخلية أساسية:

المرض كامن في نفس المسلم، وفي ثقافته الموروثة من زمن الانحطاط، كما هو كامن في سلوك المسلم وتصرفاته اليومية، وفي قلبه وعقله.. والأزمة تكمن في الأدران العالقة بالمسلم من تراث الانحطاط عبر القرون

سبب خارجي ثانوي:

المعامل الاستعماري الذي يستغل ضعفنا وقابليتنا للاستعمار



- **والمريض نفسه يريد - ومنذ مائة عام - أن يبرأ من آلام كثيرة :** من الاستعمار ونتائجه ، من الأمية بأشكالها ، من الفقر رغم غنى البلاد بالمادة الأولية ، من الظلم والقهر والاستعباد، من ومن ، ومن ، وهو لا يعرف حقيقة مرضه ولم يحاول أن يعرفه ، بل كل ما في الأمر أنه شعر بالألم ، ولا يزال الألم يشتد ، فجرى نحو الصيدلية، يأخذ من آلاف الزجاجات ليواجه آلاف الآلام .

- **وليس في الواقع سوى طريقتين لوضع نهاية لهذه الحالة المرضية ، فإما القضاء على المرض وإما إعدام المريض .** لكن هناك من له مصلحة في استمرار هذه الحالة المرضية سواءً أكان ممن هم في الخارج أو ممن يمثلونهم في الداخل .

لقد دخل المريض إلى **صيدلية الحضارة الغربية طالباً الشفاء ، ولكن من أي مرض؟ وبأي دواء؟** وبديهي أننا لا نعرف شيئاً عن مدة علاج كهذا، ولكن الحالة التي تطرد هكذا تحت أنظارنا منذ قرن، لها دلالة اجتماعية يجب أن تكون موضع تأمل وتحليل .



- إن نهضة المسلمين تحتاج منا أن نعمل على إزالة معوقات النهضة من جهة، وصياغة مشروع نهضة من جهة أخرى.

أولاً: معوقات النهضة:

هناك معوقات ذاتية ومعوقات موضوعية؛ فأما الذاتية فهي نابعة من ذاتنا الحضارية بفعل ما أصاب المسلمين من أمراض تصيب المجتمعات والحضارات، وهي سنة الله في خلقه لا يمكن أن تحايبنا لأننا مسلمون، بل يصاب بها كل من لم يتحقق بشروط التحصين منها. وهي معوقات اجتماعية ونفسية وفكرية. وأما المعوقات الموضوعية فهي العوامل الخارجية لتخلفنا وتأخرنا، وهي أساسا الهيمنة الحضارية الغربية وما جلبت علينا من مختلف التحديات بداية بالاستعمار ونهاية بالعولمة والغزو الفكري والحضاري.

ثانياً: صياغة مشروع للنهضة الحضارية.



معوقات النهضة: المعوقات الذاتية (اجتماعية ونفسية وفكرية)

أ. المعوقات الاجتماعية:

١- **الحرفية في الثقافة:** الجهل المركب الذي يتميز به المثقف العربي يشكل مرضا مزمنا ومعديا ومتوارثا بين الأجيال، لأن الجاهل الذي يقدم نفسه على أنه حامل للشهادة الأكاديمية، أو حامل لكتاب الله، لا يدرك بأنه جاهل ويعتقد بأن الشهادة التي حصل عليها هي المقياس الوحيد لمكانته العلمية، ولوقوعه في أسر الغرور وجنون العظمة لا يعترف بأخطائه ولا يصححها.

٢. **تحلل شبكة العلاقات الاجتماعية:** تمزق البناء الاجتماعي للأمة، وسيادة النزعة الفردية في المجتمع مما يؤدي إلى انعكاس معيار القيم، وتعارض مصالح الأفراد والجماعات فيما بينها، فيحدث الاصطدام الداخلي الذي يقضي على العمل التكاملي الجاد ويؤدي إلى إهدار الكثير من الطاقات الاجتماعية وصرفها فيما لا جدوى منه.



٣- **عدم تماسك عالم الأفكار:** أمّا الأفكار السائدة في العالم الإسلامي اليوم فما هي إلا مزيج من الأفكار التي تعيق التطور والنمو وتتمثل في الأفكار الميتة والأفكار القاتلة، ورغم اختلاف مصدريهما إلا أن كلاهما يؤدي إلى الهدم لا البناء.

٤- **طغيان عالم الأشياء:** إن طبيعة العلاقة بين الإنسان المسلم اليوم وعالم الأشياء يحددها المعيار الصبباني في التعلق بالأشياء، إذ لم يعد الإنسان يستمد مكانته الاجتماعية من كونه إنسانا ولا من زاده المعرفي وإنما من كمية الأشياء التي يمتلكها ويتصرف فيها.

٥- **طغيان عالم الأشخاص:** كما أن الجماهير في مجتمعنا لم تعد تؤمن بمشاريع فكرية معينة، بل كل ما يشد انتباهها هو ذلك الشخص الكارزمي الذي يعتقدون أنه يمتلك جميع الحلول لمشكلاتهم الخاصة، إلى درجة أن يتحول شخص الزعيم إلى وثن يعبد إمّا خوفا وإمّا انبهارا وإمّا طمعا.



٦. **سيادة النزعة السياسيّة:** انحراف الممارسة السياسيّة في الوطن العربي، بحيث انفصلت السياسة عن القواعد والأسس العلميّة التي تقوم عليها وتحولت إلى خداع ومكر وتضليل يمارسه بعض الدجالين لمغالطة أصحاب النوايا الطيبة والسذج من الجماهير، واستخدام جماجم الضعفاء كجسر للوصول إلى السلطة أو البقاء فيها.

ب. معوقات نفسيّة:

١- **غياب الفعاليّة:** يتميز تفكير الإنسان المسلم اليوم في معظمه بأنه تفكير نظري غير مرتبط بأهداف عمليّة، وأغلب من يسمون أنفسهم بدعاة التغيير يكثرون الكلام من دون أن يكون لذلك أي انعكاس ايجابي على الواقع.



٢- **الميل إلى التكديس:** لجوء المجتمع الإسلامي إلى التكديس بدل البناء، فطغيان الشبيئية أعمى بصيرته وجعله يغفل عن البناء المرحلي التكاملي ويبدله بتكديس منتجات الحضارة إلى جنب بعضها البعض معتقدا أن هذه المنتجات هي التي تصنع الحضارة في حين أن العكس هو الصحيح بحيث أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها، ويشتمل التكديس على الأشياء والأفكار والأشخاص.

٣- **القابلية الاستعمار:** إن الاستعمار ما كان ليعمر طويلا في العالم الإسلامي لو لم يجد الأرضية مهيأة لبقائه من خلال ذلك الاستسلام التام بل والوقوف إلى جانبه من طرف البعض وتبنى أطروحاته والدفاع عنها من طرف البعض الآخر، ومنه فالقابلية للاستعمار إنما تعني تلك الحالة النفسية السلبية المتمثلة في الرضا بالعدو والاستسلام للهوان والعجز عن مواجهة تحديات الواقع ومشكلاته.



ج. معوقات فكرية:

١- **النزعة الذرية (التجزئية):** إن أسباب كبوة المشاريع النهضوية ترجع إلى تلك الانطلاقة غير الموفقة التي لا تقوم على الرؤية التكاملية العميقة، والتي لا تدرك أهمية مختلف جوانب الحياة المادية منها والمعنوية، وتأثيراتها المتبادلة فيما بينها، وإنما تقوم على رؤية سطحية تجزئ المشكلات، وتطرحها منفصلة عن بعضها. بل قد تتشغل بجزئية صغيرة وتراهن عليها لوحدتها لتحقيق أهداف النهضة، ولعل هذه النظرة التي تفصل المشكلات عن بعضها وتجزئها هي سبب ذلك الفشل المتكرر لمحاولاتنا النهضوية.

٢- **غياب النقد الذاتي:** إن المسلم اليوم، بمختلف توجهاته، يعاني من عقدة رفض النقد، الأمر الذي يجعله يتمادى في أخطائه من دون أن ينتبه إليها، وقد يكون سبب هذا الرفض هو التهرب من تحمل مسؤوليات نتائج الانحرافات التي تحدث بين الحين والآخر في مسيرته النهضوية، بحيث أنه يتم اللجوء إلى اتهام الآخر أحيانا واتهام التراث في أحيان أخرى لتبرير العجز أو الخطأ في مقابل الحذر المفرط من توجيه جهاز النقد والفحص للذات.



غياب الوعي المنهجي : العشوائية في العمل، فبالرغم من وجود النية الخالصة للقيام بالتغيير، إلا أنها ليست الشرط الوحيد. بل نحتاج إلى المعرفة الواسعة بسنن التغيير الاجتماعي. وهو العنصر المفقود في الكثير من محاولاتنا النهضوية، بحيث نجعل حتى خصوصيات المرحلة التاريخية التي تمر بها أمتنا. لذا تجد البعض منّا يلجأ إلى الماضي البعيد لاستعارة حلول جاهزة، أوجدها أصحابها لمواجهة تحدياتهم الخاصة المختلفة زمانياً عنّا، وتجد البعض الآخر يلجأ إلى الضفة المجاورة لاستيراد حلول جاهزة أيضاً، أوجدها أصحابها لمواجهة تحديات خاصة بمرحلتهم التاريخية المختلفة عنّا.

الاغتراب الزمني والمكاني: اتفاق كل من **دعاة الإصلاح ودعاة التحديث** على تجاهل واقع أمتهم كنقطة انطلاق أساسي لبناء مشروعيهما النهضويين، فعاد دعاة الإصلاح بأفكارهم إلى الماضي للتشبث به والدفاع عنه من دون تمحيص ولا نقد، وتمثل دعاة التحديث مذاهب فكرية غريبة لها واقعها الخاص الذي نشأت فيه. وبالتالي فهذا الاغتراب الزمني والمكاني هو الذي أدى إلى التلفيق والفوضى أحياناً وإلى اصطدام الجهود أحياناً أخرى مما عرقل السير في طريق النهوض.



المعوقات الموضوعية (الحضارة الغربية)

- وفي مقابل هذه الأمراض الداخلية التي ظلت تنخر جسد الأمة فكريا ونفسيا واجتماعيا، نجد حاجزا خارجيا يتمثل في الاستعمار (الحضارة الغربية) الذي يرفض أن يتحول العبد إلى سيد يتخذ قراراته بكل حرية ومسؤولية،
- كما يرفض تعدد أقطاب الحضارة الإنسانية ومراكزها، كل هذا يدفعه لإجهاض أي مشروع نهضوي أو تحرري يحاول تحقيقه المستضعفون.
- وهناك مجموعة من الأدوات والآليات التي يوظفها الغرب كقيود وحواجز تمنعنا من تحقيق أهدافنا الإنسانية والحضارية ونذكر منها:
 1. العمل على اختراق مختلف المبادرات التي يهدف أصحابها لتغيير أوضاعهم وأحوالهم، من خلال إدخال مجموعة من المتغيرات تساهم في الانحراف بها عن هدفها الرئيسي، للمحافظة على المصالح الاستعمارية وإجهاض المبادرات الأصيلة من خلال إبعادها عن مسارها الصحيح.



٢- تسخير إمكانيات مادية كبيرة وإمكانيات بشرية عالية المستوى للاستعلام عن حركة الأفكار للتخلص منها إمّا بتشويشها والانحراف بها إذا كانت فعالة وإمّا بتضخيمها وتوسيع نشرها والترويج لها إذا كانت متوافقة مع مصالحه.

٣- توظيف الاستشراق في عملية الصراع الفكري لارتباطه بمؤسسات الاستعلامات التابعة للاستعمار، وإذا كان دور الفريق الذي حاول تقزيم أو إلغاء دور الحضارة الإسلامية المساهمة في المنجزات الإنسانية واضح للغاية، فإن دور الفريق الثاني الذي نصفه بالموضوعي هو الآخر مؤسسة لإنتاج مخدرات تمجيد الماضي الزاهر للأمة للانبهار به عوض مواجهة تحديات الواقع المختلف.



٤- اهتمام الغرب بالبعثات الطلابية للانحراف بها عن طريق طلب العلم لتعود بالشهادة الأكاديمية ولكن من دون زاد علمي ومعرفي، فتوظف كأداة لتكريس الرداءة والتشجيع عليها في أوساط النخبة المثقفة، وفي حالة ما إذا أثبت بعضهم امتيازهم فسيحيطه بالتسهيلات والإغراءات من كل جانب للبقاء هناك. بل تغلق كل الأبواب في وجهه إذا ما عاد إلى بلاده، لأن أعداء النجاح يرفضون وجود الممتازين بينهم.

٥- تحطيم قدرات الإنسان المسلم من خلال الانحراف بسلوكاته إلى ميدان الوقاحة والرذيلة وذلك من خلال محاربة القيم الأخلاقية بمختلف الطرق وتشجيع دعاة الانحلال بأسماء مختلفة، ويهدف بذلك إلى تفكيك الروابط الأخلاقية لتمزيق شبكة العلاقات من جهة وإلى تغيير البنية الثقافية السائدة من جهة أخرى بالإضافة إلى المحافظة على حالة التخلف.



٦- تشجيع التعصب للأنا سواء كأفراد أو كجماعة، لينقسم المجتمع إلى فريقين متناحرين فريق يتخذ من الغرب ملهما له فيستسلم له خاضعا مستكينا ويرفع ألوية الدفاع عنه، وفريق ثان يجعل من الغرب شيطانا بليدا فيظل يواجهه بانفعال متزايد، والواقع أن الفريقين من صنع مخابر الصراع لأن ما يؤول إليه نشاطهما في النهاية هو النتيجة نفسها، وهي إبعاد المسلم عن واجباته اليومية وتحدياته الواقعية وتخديره إما بانبهاره بالغرب وإما بالحماس والانفعالات التي لا معنى لها في صناعة الحضارة.

٧- تأثير الغرب مرتبط بجانبين، جانب سلبي وجانب إيجابي، فأما الأول فيتمثل في خطئه ومؤامراته لتحطيم الأفكار الفعالة والعملية وتفكيكها، وأما الثاني فيتمثل في خلق أفكار مناسبة له ولمصالحه، ويسعى لنشرها لتصبح جزءا من يوميات أبناء الشعوب الإسلامية، بل إن حماسة الشعوب وانفعاليتها تجعلها تنظر إلى هذه الأفكار بأنها من الضروريات التي لا يمكن الاستغناء عنها.



ما هو سبيل النهوض بالمسلمين؟

لا بد من الخروج من النزعة الانفعالية التي تتجاهل الحاضر تجاهلا تاما بسبب الانبهار بمنجزات الغير سواء من القدماء أو الغربيين.

ولابد من بناء مشروع للنهضة قائما على التحليل العلمي والعقلاني لظاهرة التخلف الحضاري الذي تعيشه الأمة، بحيث نقوم بداية بتحديد المرحلة التاريخية التي نعيشها، وانطلاقا من خصوصيات هذه المرحلة، نحدد الخصائص النفسية والفكرية والاجتماعية لإنسانها؛ والتي تتمثل في أهم المعوقات الذاتية التي وقفت في وجه المحاولات النهضوية ومنعتها من تحقيق أهدافها الحضارية.

- نقوم بتفكيك معوقات النهضة وبناء مشروع جديد بناء على تحليل لمظاهر وأسباب التخلف وصياغة رؤية كلية تستوعب مختلف أبعاد النهضة، ونصمم منهاجا قابلا للتطبيق نظريا وعمليا يحقق أهدافنا من النهضة.



١. **الإنسان: محور عملية النهضة :** إن المشروع الإصلاحي يبدأ بتغيير الإنسان ، ثم بتعليمه الإنخراط في الجماعة ثم بالتنظيم فالنقد البناء. وتبدأ عملية التطور من الإنسان لأنه المخلوق الوحيد القادر على قيادة حركة البناء، وتحقيق قفزات نوعية، تمهيداً لظهور الحضارة.

فالمجتمعات في حاجة -عندما تريد بناء أو إعادة بناء نفسها- إلى الإنسان الجديد الذي يوظف كل طاقاته وإمكاناته مهما كانت بسيطة. **ولكي تعود (المجتمعات) من جديد إلى ساحة الفعل الحضاري لابد من أن تعيد صياغة هذا الإنسان وتوجيهه عبر:**

- توجيه الثقافة. - توجيه العمل. - توجيه رأس المال.

وهي الأمور التي يمكن من خلالها للإنسان أن يؤثر في واقعه (أي أنه يؤثر بفكره وعمله وماله).



فلوصول إلى الحضارة المرجوة، خطوات وألويات يجب تحقيقها حتى تكون الحضارة مبنية على قواعد راسخة متينة ومعظم هذه التغييرات يجب أن تحدث أولاً في الفرد نفسه قبل أن نرى أثرها في الواقع الاجتماعي.

ولتحقيق التغيير لابدّ من تغييرين، تغيير ما بالقوم (الوضع الاجتماعي)، وتغيير ما بالأنفس. وما يؤكد على هذا القول هو قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

فتغيير الإنسان وإعادة صياغة وتخليصه من تخلفه شرط لازم ليحقق التغيير الحضاري الشامل للأمة. ولنا في رسول الله أسوة حسنة، حيث أنه غير من أنفس الأفراد أولاً، وشكل شخصياتهم الإسلامية، ثم بنى بهم الدولة والأمة والحضارة.



٢- من التكديس إلى البناء:

- إن العالم الإسلامي بدأ يتجه إلى جمع الأكوام من المنتجات الحضارية أكثر من اتجاهه إلى بناء حضارة وهو ما يسمى **بالتكديس**.
- فينتهي بنا الأمر إلى ما أسماه مالك بن نبي **بالحضارة الشيئية**. أي أن التكديس لا يعني البناء لأن البناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة التي تكون منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكون الحضارة.
- وقد يتساءل شخص ما الذي نأخذه من الحضارة الغربية؟ وللإجابة على ذلك يقول مالك: "إن علينا أن نأخذ من الحضارة الغربية الأدوات التي تلزم في بناء حضارتنا... حتى يأتي يوم نستطيع فيه الاستغناء عنها بمنتجاتنا".



٣- دور الأفكار في البناء الحضاري:

- هناك أهمية كبيرة للأفكار وتأثيرها على الفرد والمجتمع وبناء الحضارت. فالفكر ركيزة هامة في حياة الشعوب، ودليل على حيويتها وتقدمها، أو على العكس دليل على جمودها وتخلفها، لأن نتاج العقل البشري الذي خلقه الله لهذه الغاية فالنجاح الفكري وسيلة للقضاء على الأفكار الميتة لأن "تصفينة الأفكار الميتة وتنقية الأفكار الميتة يعدان الأساس الأول لأية نهضة حقة".
- وكذلك فإن انحراف الأفكار عن مجراها بالنسبة للأفكار الجوهرية تبين لنا مقدرا عدم فعالية المجتمع مما يؤدي إلى الزيغ من جيل إلى جيل عن طريق الامتصاص وتعتبر الأفكار في هذه الحالة هي الجراثيم التي تكون كالعدوى الاجتماعية لنقل الأمراض.
- فينعكس المرض على المجتمع، وأحيانا قد يحدث انعكاس الفكرة المرذودة فيعود ذلك بالخير بسبب اكتشاف بطلانها.



٤- ثقافة النهضة وثقافة التخلف:

- ما دامت الثقافة هي ذلك المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته وسلوكه، فإنّ أنماط الشخصية والسلوك الإنساني هي تجسيد واقعي لما يلقاه الفرد في بيئته الاجتماعية.
- ولنقرّب الصورة أكثر ونحوّر المثال الذي دلّل به ابن نبي على وظيفة الثقافة عندما شبهها بوظيفة الدم الذي يغذي جسم الإنسان، نتصور من الناحية البيولوجية أنّ هذا الدم يحمل في تركيبته جراثيم قاتلة، ونتصور أنّ مناعة هذا الإنسان تتناقص بتقدمه في العمر فإنّ هذه الجراثيم تزداد خطورتها على حياته، فهي إن لم تقتله جعلته عرضة للمرض والوهن،
- كذلك الثقافة في مراحل تخلف المجتمعات تتولّد في نطاقها السلبيات وتتراكم مع الزمن لتحمل في طياتها أفكاراً قاتلة أو ميته يمتصها جسم المجتمع، فتقضي على فعاليته وعلى تحضّره وتقوده عند نهاية دورة حضارته إلى التخلف والانحطاط.



- فعندما يبدأ المجتمع مسيرته الحضارية تكون كل قواه حية ومتحركة، تلك التي تنعكس أيضاً في نفسية الإنسان المتحضّر من خلال ما يلقاه في بيئته من مسوّغات دافعة وأفكار حية وطاقات محرّكة وضمانات تتيح له أن ينمّي قدراته الذاتية، فتشكّل فيه قيمة الفعالية التي تمكّنه من أن يستغلّ ما بين يديه من وقت وتراب.

- وعندما تدخل المجتمعات إلى مراحل تخلفها تخدم حركتها الدافعة، وتفقد مسوغاتها ويصبح الفرد كلاً فاقداً لفعاليته لأنّ ثقافته التي ورثها من عصور الانحطاط عبر وراثته الاجتماعية، لم تستطع أن تمنحه الفعالية التي يؤثر بها في محيطه، فأحكامه وسلوكاته ولا فعاليته هي الترجمة الواقعية لما انطبع في نفسيته من قيم وعادات سالبة امتصها من محيطه الثقافي.



وعلى هذا الأساس تبرز العناية بالمسألة الثقافية، فهي المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري. ولكي يحقق المجتمع تألقه في التاريخ، ويقضي على ضروب التخلف واللافعالية، ينبغي أن نغيّر عالمه الثقافي،

وأن نضع الإنسان أمام ضرورات جديدة تفضي إلى تغيير معادلته الشخصية التي زيّفتها عهود الكساد، وهذا هو رهان الثقافة الأساسي، أي أن تعيد الإنسان -الخارج من دورة حضارية بعد أزمة تاريخية- إلى الحضارة، وأن تدخل الإنسان السابق على الحضارة إلى دورة حضارية جديدة

وهو التحدي الذي يقف أمام المجتمع الإسلامي فيستدعيه إلى ضرورة التفكير في الإنسان الذي ينبغي إعادة صياغته ثقافياً حتى يتواءم مع ضرورات التحضر لأنه من أجل أن نغيّر الإنسان ينبغي أن نغيّر وسطه الثقافي بإنشاء وسط جديد يمنحه المسوّغات الدافعة والفعالية القصوى حتى ينطلق في عملية البناء الحضاري.





بِسْمِ
اللَّهِ
بِحَمْدِ اللَّهِ

